الأبعاد السوسيو- ثقافية الاتصال

أ. نابتي علي*

***

إن أهم ما يميز الإنسان عند اتصاله بإنسان آخر هو حدوث تفاعل معين تقوم على أساسه علاقات مختلفة ويتخذ هذا التفاعل عادة عددا من الأشكال المختلفة، اصطلح المجتمع على اعتبار بعضها مرغوبا فيه والبعض الآخر غير مرغوب فيه، وواضح أن كلا من الاصطلاحين نسبي بمعنى خضوعه لزمان ومكان معينين، فما يكون مرغوبا في مجتمع قد لا يكون كذلك في مجتمع آخر والعكس صحيح، كما قد يكون ما هو مرغوب في وقت معين غير مرغوب فيه في وقت آخر في نفس المجتمع.

ويهمنا من كل هذا، حدوث التفاعل كصفة أولية من صفات المجتمع، فالإنسان مادام يجتمع بإنسان آخر، فلا بد أن يحدث تفاعل معين يفضي إلى قيام علاقات معينة.[1]

عرّف عالم الاجتماع "**إميل دور كايم - E. Durkheim** " (1858-1917) الاتصال بأنه تفاعل ضمن شبكة، تتبادل فيها وتتوزع فيها التمثلات الجماعية وعلى هذا الأساس اهتم علم الاجتماع بدراسة الجمهور والتأثير، واهتم العلماء أيضا بدراسة مضمون الرسالة الإعلامية مثل ما قام به "**ماكس فيبر- M.Weber**" عند دراسته للمذهب

---

*أستاذ علم اجتماع الاتصال/ جامعة سعيدة.

[1]- د. أحمد الخشاب ود. أحمد الكنلاوي، " المدخل السوسيولوجي للاعلام "، القاهرة، دار الكتب الجامعية، 1974، ص.80.

البروتستني والفكر الرأسمالي[1]. ومن جهته أعطى "**ج.ميد – G.H.Mead** " (1934- 1955) قانونا أوليا للتفاعلات التي بموجبها يتم تبادل اتصالات مرمزة، لقد رأى بأن ردود الأفعال المتبادلة لا تكون فقط عند العلاقة بين الأفراد، الذين لا يبالون ببعضهم البعض كالكرات المتحركة، فعلى العكس من ذلك، تم توظيف أنساق، استعملها علماء النفس في المصطلحات الخاصة بالقدرة الفطرية على تفهم شخصية الغير، من خلال تفشي الأحاسيس مما يساعد على الفحص والتعرف على العلاقات ما بين الأشخاص.[2]

درس "**مورين- Morin**" (1996) الاتصال ضمن التفاعلات: « حسب مخطط كلاسيكي فالاتصال يحدث عندما يرسل" أ " (شخص أو جماعة) رسالة يستقبلها"ب" فهذا لا يتم دون عوائق فالمسألة تتوقف على إحداث فهم جيد متبادل، خاصة عند المحادثة، التي تبدو رهانا هاما في الحياة الاجتماعية»[3].

جاء " **مورين** " بخمسة عناصر مؤسسة للاتصال على النحو الآتي:

- ✓ المرسل؛ مصدر الرسالة والذي غالبا ما يحظى بالتحليل،
- ✓ المتلقي؛ مستقبل الرسالة غالبا ما يكون العنصر الأساس،

---

[1]- المرجع نفسه، ص.82.

[2] - د. علي ليلة، " النظريات الاجتماعية المعاصرة "، ط3، القاهرة، دار المعارف، 1983، ص. 372.

[3]- Janine Beaudichon, "La Communication", Paris: Armand Colin, 1999, P.28.

- ✓ الرسالة؛ المضمون المرسل المهمل في التحليل،
- ✓ الوسيلة؛ قناة الإرسال تستطيع اقتلاع الرسالة ذاتها،
- ✓ الوسطاء؛ ربط محتمل مثل الجيران وقادة الرأي.[1]

هذه العناصر – حسب مورين- تحدث الاتصال بأمواج متتالية، تترابط أو تلتحم أو تلغي أثر الاتصال (وقفا على ما يؤكده أو يتناقض فيه المتصلون فيما بينهم)؛ هذا التعريف يؤكد على المرسل وعلى الروابط بينه وبين المستقبل. فيبدو أنه يتلاءم جيدا مع أبعاد الاتصال الإنساني، باعتباره أداة وصل وتأثير ما بين الأشخاص والجماعات، ويبدو أكثر أهمية في إجراء مقاربة تكاملية لأنساق الاتصال.

الاتصال ومفاهيم التفاعل الاجتماعي :

من منطلق أن الإنسان كائن اجتماعي وكل سلوك هو اتصال، فكل تفاعل مهما كان يفترض تحديد نموذج اتصال، بمعنى مجموعة من التركيبات اللفظية وغير اللفظية مكلفة بالتعبير، بالترجمة والتدليل في كلمة تقول:« ماذا يريد هؤلاء إيصاله للآخرين في مضمار علاقة ». فكل شخص يعبر في إطار التفاعل: من يكون؟ ماذا يفعل؟ في ما يفكر؟ ماذا يعرف؟ ماذا يرغب؟ ماذا يفضل؟. يعبر عن هذا " **بينفينيست – Benveniste**" (1966) بقوله :« في

[1] -Ibid, P.29

العالم يتكلم الإنسان مع إنسان آخر، واللغة تشرح نفس تعريف الإنسان»[1].

عرف le petit Robert " التفاعل الاجتماعي: « بأنه فعل متبادل action réciproque »، غير أن بساطة هذا التعريف أخفت وراءها تعقيدا كبيرا.

عرف كل من " **ميلر- Muller** " و"**لوكس - Lucas** " (1975) و" **بودونيير - Baudonnière** " (1988) التفاعل الاجتماعي : « هوما يترتب بعديا عن سلوكين موجهين، يكتسيان صبغة اجتماعية»[2].

يرى " **ميد - G.H.Mead** " (1934) بأن التفاعل الاجتماعي هوما يفضي إلى بناء هوية الشخص، من خلال مشاركته للآخرين في الفعل الذي يسمح له بإجراء جيد للأدوار.[3]

على صعيد آخر أعطى " **قوفمان - Goffman** " (1973) تعريفا يعتبر أن : « كل تفاعل اجتماعي هو الحيز الذي يبحث فيه الفرد بسلوكه على مراقبة التمثلات التي شكلها الآخر عنه».[4]

وجاء سنة (1974) بتصور استمده من العلوم الفيزيائية، اعتبر فيه: «... التفاعلات ذرات atomes المجتمع، فهي خاضعة لنظام سابق في الوجود للقائمين بالاتصال، إنهم يكتفون بمجرد التموقع. فالمبادلات لا تتشابك بفضل هذا النظام المتفوق عليهم، وحتى التيارات العدائية

---

[1] -Benveniste, E, " Problèmes de linguistique générale", Paris: Gallimard,1966.

[2]- Janine Beaudichon, op.cit, P17.

[3]- Ibid, P.27.

[4]- Goffman, E., "La mise en scène de la vie quotidienne", Paris: Editions de Minuit, 1973, P.106.

لا تتصادم. تتعلق هذه المسألة بمرجعية مزودة بسيناريوهات ومساعدات إدراكية معرفية يتشرب منها الفرد، لفهم العالم حتى يتصرف بفاعلية».[1]

أما " **شيرر - Scherrer** " (1977) فقد جاء بمفهوم " الاتصال التفاعلي" حيث عرفه بأنه : « نسق يقوم فيه شخصان أو أكثر بتبادل الإعلام بطريقة تعاضديه يأخذ فيه الاتصال أشكالا متعددة القنوات ».[2]

يضع " **بيار بورديو- P. Bourdieu** " (1980) في صلب نظريته مسعى لتجاوز الخلاف النظري ما بين الذاتية (الظاهرتية، التفاعلية وEthnométhodologie) ، والموضوعية (البنائية).

يرفض " **بورديو**" اختزال أفعال الأفراد سواء تلك العقلانية أو الميكانيكية، فهو يقبل بفكرة الأفعال الإرادية للأفراد والمتعلقة بالإجبارات الموضوعية التي تحد أفعالهم. حاول " **بوديو**" الجمع بين الذاتية والموضوعية، مستعملا مفتاحا مفاهيميا أطلق عليه اسم "Habitus "، ترجمه الأستاذ عبد الجليل الكوى بـ: " السمت " وهو نظام من الاستعدادات والتصورات التي يصدر الفعل وفقه وبالتناغم معه [3].

عرفه " **بورديو**" بأنه : « ترتيبات مشتركة في طبقة خاصة بشروط الوجود، تنتج أنساقا لاستعدادات دائمة وقابلة للتغير، هي مبنية ومهيأة سلفا لتأدية وظيفتها البنائية، معناه، هي أساسيات تجميعية تنظيمية لتطبيقات وتمثلات، بوسعها تكييف أهدافها موضوعيا دون

---

[1] -Goffman, E., "Les rites d'interaction", Paris: Editions de Minuit, 1974, P.38.

[2] - Janine Beaudichon, op.Cit, P.14.

[3]- Bourdieu, P, "Le sens pratique", Paris: Editions de Minuit, 1980, P.88 .

افتراض وجهة النظر الواعية للغايات والتحكم السريع للعمليات الضرورية قصد التوصل إليها. من حيث الموضوعية فهي "مضبوطة " و" منضبطة "، دون أن يكون لها باع في نتاج الامتثال للقواعد وهي جماعية ومنسجمة دون أن تكون نتاجا لفعل منظم لرئيس جوقة »[1].

حسب فهمنا، فأنساق الاستعدادات هي بصورة ما، الحقائق الموضوعية المدمجة في الحياة اليومية وهوما سماه " **بورديو**" " المعنى التطبيقي " ويعني بها التجارب الماضية المحشوة في المنطق التطبيقي.

مفاهيم " أنساق الاستعدادات والتصورات التي يصدر الفعل وفقها وبالتناغم معها: "Les habitus " و" المعنى التطبيقي " هوما يعطي معنا لأفعال الأفراد، ليس من حيث تحديدها ميكانيكيا ولا من حيث تصويبها الواعي لغاياتهم، ولكن لأنها تفسر أفعالهم بما يتماشى مع وظيفة الاستعدادات المكتسبة، والقابلة لاستعمال فعل في هكذا حقل.

يوضح " **بورديو**" (1987) أكثر بقوله: « يتوافق الفاعلون بشكل ما مع التطبيق الذي ليس سوى ملكهم، لم يختاروه ضمن مشروع حر، كما لم يدفعوا إليه بإكراه ميكانيكي. فهو كما يبدو نسقا (أنساقا) للاستعدادات المكتسبة في العلاقة مع ميدان معين. يصبح ذلك التطبيق ماهرا ومؤثرا في حالة تزامنه مع شروط فعاليته، تلك المطابقة أو المماثلة مع شروط المنتج ».[2]

التفاعل والأنساق النفسية:

[1]- Ibid, P.89.

[2]- Bourdieu, P, "Choses dites", Paris: Editions de Minuit, 1987, PP: 127-128.

كل تفاعل يؤدي إلى تحريك الأنساق النفسانية، المستمدة من قاعدة النمو الإدراكي المعرفي والعاطفي للكائن البشري، فهي التي تمثل الجزء المغمور من التفاعل، لقد أظهرت الدراسات في علم النفس وعلم النفس التحليلي بأن الأنساق النفسانية تصاحب كل كلمة وكل خطاب وكل فعل. يرى " **أو نريكاز – Enriquez**" (1983) بأن : « كل اتصال هو دائما جزئيا بالنظر إلى وجود جزء كذوب، بسبب الميكانيزمات النفسية للكبت، التفسخ، الحاجة إلى الحماية، تحويلات سلبية يمكن أن تحدث اتجاه بعض المواضيع(...) وما يبقى ممكنا هوما ينتج عن إلزامية العيش والعمل مع الآخرين، هي إذن المحاولة المعرضة دائما للخطأ والتي تعاد ضمن اتصال لا يؤدى بعنف صارخ هو قريب جدا من ميكانيزمات إعادة الثقة النرجسية ولحاجات هوية الأفراد، أولئك الذين يعرفون القسمة ما بين اعتراف الرغبة ورغبة الاعتراف فيما بينهم ».[1]

إذن ليس بمقدور كل اتصال، حتى من منطلق شموليته، الإحاطة التامة بمعرفة وتفهم شخصية الآخرين فالدلالة التي نعطيها لبعض الحركات، ولبعض الألفاظ علينا إرجاعها دوما إلى الأطر النفسية التي أثارتها، علينا التصرف بالطريقة التي تمكننا من التعرف أحسن على بعض السلوكيات التي تبدو لأول وهلة غامضة، متناقضة أو غير عقلانية بالمرة فالانفعالات والمشاعر العاطفية لا يمكن الاستغناء أو غمد أبعادها في العلاقات الإنسانية، سواء في الاتصال وجها لوجه أوفي جماعة.

التفاعل في الأنشطة الطقسية:

[1]- Enriquez, E., " De la horde à l'Etat", Paris: Gallimard, 1983, P.391.

يحتاج كل تفاعل لوجوده نموذج اتصال، يعطي شكلا طقسيا (بالمفهوم الانثروبولوجي وليس الايثولوجي: علم العادات/ الأخلاق) كما وصفه " **قوفمان** -**Goffman** (1974): « الحياة اليومية هي المسرح الدائم للطقسية».[1]

تقوم طقوس التفاعل بتنشيط مجموع الالتزامات والارجاءات والتشكيلات، هي وظائف تحافظ على الهيئة (La face) أو استرجاعها عندما تضيع منا في خضم لقاء. تجند المجتمعات في كل البقاع أفرادها لكي يحافظوا على تماسك إنيتهم الجمعية، يحدث وأن تدعوهم للمشاركة في لقاءات لتنمية المراقبة الذاتية في الاتجاه الايجابي.

تعتبر الأنشطة الطقسية من الطرق التي تدرب الفرد في هذا المنوال: يتعلم كيف يكون ممعنا ،كيف يرتبط بذاته (الأنا) والتعبير عنها من خلال الهيئة التي حاز عليها كيف يظهر الخصال الجيدة كيف يكون له اعتبار وذوق وبعض الثقة. هي بعض السلوكيات الأولية التي يكتسبها الفرد لاستعملها كعناصر تفاعلية.[2]

من ناحية ثانية فالأدب، الذوق، المجاملة، ما يسمى بآداب السلوك، هي وسائل (طرق) عالمية التعبير وهوما لخصه " **دارفو**- **Devereux**"(1980) في عبارة جامعة: " مقابلة لائقة ".[3]

---

[1] -Goffman, E., "Les rites d'interaction", op.Cit, P.42.
[2]- Ibid, P.33.
[3] أنظر: - Devereux, G., " De l'angoise à la méthode dans les sciences du Comportement ", Paris Flammarion, 1980

على هذا الأساس، فالطقوس تؤدي دور الحماية، حماية ذواتنا وحماية الآخر فوظيفتها إشاعة الاطمئنان عندما تهتز الثقة المتبادلة [1]. فبدون هذه المهمات الطقسية في العلاقات اليومية سيتأثر تماسك الوجود؛ وعليه فإن طقوس التفاعل مثل النظام الطقسي الجماعي، كلاهما يساهم في التمسك بالطبع الاجتماعي.

الأبعاد الثقافية للاتصال :

إن التكافل بين الثقافة والاتصال غدا أشد وضوحا وجلاء من ذي قبل، خاصة إذا استخدمنا مصطلح "الثقافة" ليعني مجموع إنجازات الإبداع الإنساني "كل ما أضافه الإنسان إلى الطبيعة" وإذا اعتبرناها تجسيدا لكل ما يسمو بالحياة الإنسانية على المستوى الحيواني، لتضم كافة جوانب الحياة وكل طرائق التفاهم. وعلى ضوء هذا، فإن الاتصال –بين الناس والأمم على حد سواء – عنصر أساسي في كافة الحياة ومن ثم في كل ثقافة. ويمكن اعتبار دور الاتصال بمثابة دور الناقل الأساسي للثقافة. إن وسائل وأشكال الاتصال هي أدوات ثقافية تساعد على دعم المواقف أو التأثيرات فيها وعلى حفر وتعزيز ونشر الأنماط السلوكية وتحقيق التكامل الاجتماعي؛ للاتصال كذلك دور في تدبير شؤون المعرفة وتنظيم الذاكرة الجماعية للمجتمع، وبخاصة جمع المعلومات واستغلالها.

كانت وجهة نظر "**كولي**" المتضمنة في صياغته انعكاسا للاهتمام السوسيولوجي الأمريكي بموضوع التثقيف أو التشرب الثقافي للجماعات المختلفة المهاجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ومن هنا

[1]- Giddens, A., " /La Constitution de la société ",Paris: P.U.F, 1987, P.87.

فإنه كان من مهام التعليم والاتصال إذابة هذه الجماعات في النسق القيمي الكلي المشترك والسائد، فلقد وجه علم الاجتماع في بداياته الأولى اهتماما كبيرا للاتصال الشخصي الأولي باعتباره وسيلة لعملية الربط والإذابة[1]. فالاتصال وظيفة هامة يؤديها في مجال التكامل أو التشابه الثقافي على المستوى الاجتماعي العام حيث اهتم السسيولوجيون بالقوة الرابطة للاتصالات الجمعية ومسؤولياتها الاجتماعية؛ رتب "**كلارك فيزير- Clark Wissier** " عالم الدراسات البشرية العناصر التي تتألف منها الثقافة على النحو التالي:

أولا: اللغة، وتشمل: طريقة التخاطب والإشارات والرموز التي تستخدم في ذلك، والكتابة والطريقة رسم الحروف، وما يتعلق بنقل الأفكار والأعمال من شخص لآخر،

ثانيا: العناصر المادية وتشمل على:

- العادات والأذواق الخاصة بالمأكل والمشرب،
- نماذج المواصلات أو النقل،
- أنماط الملابس،
- الأدوات والأواني المستخدمة في الأكل والشرب،
- الأسلحة المستخدمة لحماية الجماعة في السلم والحرب،
- المهن والحرف،

[1]- د.محمد عبد المنعم نور، " أسس العلاقات الإنسانية"، القاهرة، دار المعرفة، 1978، ص.193.

ثالثا: الفن والنحت والنقش والرسم والموسيقى السائدة في الجماعة...الخ

رابعا: الأساطير الدينية Myths والأساطير الشعبية Legends والمعارف العلمية؛ أي ما وصل إلى المجتمع من مستوى علمي،

خامسا: الطقوس الدينية، وتشمل بوجه خاص أشكال التدين وعلاج المرضى وطقوس دفن الموتى والنماذج السحرية،

سادسا: الأسرة والنظم الاجتماعية السائدة، وتشمل:

- أشكال الزواج،
- طرق تعيين ذوي القربى،
- الميراث،
- اتجاه الحياة الاجتماعية،
- الألعاب والتسلية،..الخ[1].

الكائن البشري كائن رمزي:

يدخل الإنسان في تفاعل مع الآخر من خلال علاقة، في خضم مسارات المطابقة والتقمص يتحسس إن كانت رغبته ووجوده معترف بهما أم لا. فكما أظهر " **فرويد - Freud** " والذين من بعده، بأن الآخر في ذات الوقت، قدوة، خصم، دعم، حمل...فتشكيل الكائن البشري يمر في هذه العلاقة المتعددة الأشكال مع الآخر، فمن خلالها ينشأ، يتعرف، يختبر لذته وألمه، يقبل أو يحجم على تلبية نزواته وأمنياته.

[1] - د.حسن شحاته سعفان، "أسس علم الاجتماع"، القاهرة، دار النهضة العربية، 1978، ص. 225.

يتمظهر الكائن البشري كذلك في رجاحة عقله أو فقدانه لصوابه ورشده، حيث تمتد جذور هذه المظاهر في الحياة الداخلية والعالم الخارجي.

تؤدي الحياة النفسية دورا أساسيا في السلوك البشري إن على مستوى الفرد أو على المستوى الجمعي، إنه مكان بلا منازع، فيه امتياز للخيال لدفع الكبت، للدفاعات وأنساق للتقمص. [1]

الكون البشري، عالم يعج بالإشارات والصور، المجازات، الشعارات، الرموز، الأساطير.

والاستعارات الخ.. موضوع استرعى اهتمام حقـول: الأنثروبولوجيا، علم الأجناس، تاريخ الأديان، الميثولوجيا، الفنون والآداب، والفلسفة وعلم الاجتماع.

فالرمزي كما كتب "**ديروند -G.Durand** ":« يمتزج مع سير الثقافة الإنسانية بكاملها»[2] كل كائن بشري وكل مجتمع إنساني يتمثل العالم بطريقة أو بأخرى ليعطيه بالمرة معنى؛ فالخيال الرمزي سيبحث قبل كل شيء عن تمثله للماضي، عن ما لا يدرك، عن ما يتعذر التكلم عنه[3].

هذه التمثلات الرمزية التي تأخذ وجودها من العلاقة بالمحيط في صور نوعا ما اعتباطية ستساهم في بناء هذا الفضاء الدلالي المشكل للوسط البشري

الكائن البشري، كائن زمكاني:

[1] - د.حلمي المليجي،"علم النفس المعاصر"،القاهرة، دار النهضة العربية، ط2، 1982. ص ص: 98-102.

[2]- Durand,G.,"L'imagination Symbolique",4è-Ed, Paris,P.U.F, 1984, P. 209.

[3]- Ibid,P.63.

كل كائن بشري يتمظهر في الفضاء والزمان، هذين البعدين اللذين لا ينفصلان – فالحركة في الفضاء ليست مساوية للحركة في الزمان - إنهما يحددان الأطر الجيوتاريخية للفعل البشري[1].

يحيل الزمان على الوتيرات البيولوجية، النفسية والاجتماعية التي تزن أنشطتنا الفردية والجمعية. أما الفضاء فيحيلنا على مختلف الأمكنة المكونة لجغرافيتنا الشخصية والاجتماعية فبالتالي كل شخص ينتمي إلى هكذا مكان، ينمو في وسط خاص، هذه الأمكنة تندمج بدورها في أمكنة أوسع منها؛ يمكن أن يتسم هذا التجدر الفضائي بشيء من القوة، إننا لا نستطيع أن نتصور كائنا بشريا أو جماعة ليس لها شكل ما من الانتماء لهكذا فضاء، مهما كان حجمه. لهذا السبب فإن الأماكن التي نشغلها فرادى أو جماعيا تكون موضوعا لاستثمار من كل الأنواع (عاطفي مادي، ديني سياسي،..إلخ) فهذه المصادر المتجذرة تعيد إغتناماتها تأكيد الهوية الشخصية والجماعية " فلحظة إنتاج الفعل هي كذلك لحظة إعادة إنتاجه"[2].

إن هذه الميزة الخاصة بتوافق الأفراد مع مكان غني رمزيا، هو مسرح للتفاعل، على حد تعبير "**قوفمان-Goffman** " (1973) ولعل هذا ما يفسر لماذا دائما يصعب علينا التملص أو اجتثاث شخص ما من فضاء ارتبط به. فالفضاء يرسخ - كما ذكرنا- بشكل ما الهوية الشخصية والاجتماعية، إنه بمثابة الضوء الذي يهتدي به الفرد في تحريكه؛ ففي الفضاء تتولد للإنسان الاستطاعة على التحرك بحرية، بالقياس مع الفضاء الذي وهبه لنفسه والفضاء الذي منحه إياه

[1]- Giddens, A., Op. Cit.P.90.
[2]- Ibid, P. 76.

الآخرون: تبادل، أنتج، استراح، هي مصدر شحنة انفعالية واجتماعية.[1]

إن البناء الاجتماعي والثقافي لا يمكنهما إلا أن يعكسا العلاقة التي يتصل بها الإنسان مع الطبيعة ومع بني جنسه، ليس الفضاء مكانا للحفاظ على المعيش البيولوجي والوجود السيكولوجي فحسب بل مكانا اجتماعيا، يحتوي على بنيات التفاعلات المختلفة الطراز (محلي جهوي، وطني، عالمي) تعتبر تهيئتها رهانا وتحد: رهان، بمعنى أن كل فاعل (فردي أو جماعي) يبحث في حدود إمكاناته، عن تكييف جزء أو الكل عن طريق التأقلم وعلاقات الاستطاعة؛ وهو تحدي، بمعنى أن الفضاء المهيأ والمصمم ما هو إلا إمكانية الممكن من بين الكثير من الفضاءات تخضع دائما للطواعية.

ونشير إلى أن معظم الفضاءات تخضع لبعض الزامات فضاءات أكبر منها: فضاء المجتمع وفضاء العالم.[2]

يمكن أن نورد أنواعا للفضاء كما جاء بها "**فيشر- Fischer** "، فضاء: مفتوح/ مغلق / غامض / واضح جدا / مخصص مشخص / مجهول / وظيفي / دال / فارغ / تنظيمي / متاهة فمهما كانت مواصفات هذه الفضاءات، فهي تشكل أحد الأعمدة الأساسية لإطار الفعل البشري.[3]

خلاصة هذا المبحث هي أن كل كائن بشري ينشأ في علاقته مع الآخر فعلا، فوعينا غير قابل للانفصال عن وعي الآخر، فالعلاقة

---

[1]- Goffman, E.,"La mise en scène de la vie quotidienne", Op.Cit, P.126.

[2]- Braudel,F.,"Civilisation matérielle",Paris, Armand Colin, 1979, P. 249.

[3]- Fischer,G.N., "Psychologie des espaces de travail", Paris, Armand Colin, 1986, P. 209.

تشكل على الصعيد الشخصي، وهي أساس الهوية الشخصية أما على المستوى الجمعي تصبح أساسا للهوية الاجتماعية[1].

عبر "**وينيكوت- Winnicott** "(1953) عن أهمية هذه الرابطة الاجتماعية بقوله: «أن يرغب المرء في الاعتزال والخلوة بعض الوقت، فذلك سرور ومتعة، ولكن أن يستقيل من مجتمعه فتلك هي الكارثة».[2]

فمن العلاقة مع الغير يتدفق عدد كبير من السلوكيات الشخصية، والتي يمكن ملاحظتها يوميا في الحياة العامة للناس، فكما ألحت عليه العلوم الاجتماعية، فإن حضور الآخر يؤدي دورا في تشكلات وتمثلات الإنية (genèse) والهوية السوسيوثقافية، فكل مجموعة إنسانية – كما أشار إلى ذلك "**ليفي شتراوس**- Lévi-Strauss " تتميز وتختلف في الاتصال مع الآخر[3].

هذه العلاقة الازدواجية (شخص فردي-جمعي) للغيرية (L'altérité) كانت حاضرة دوما وتخللت في كل المستويات (الشخص، التفاعل، منظمة، مجتمع، عالم).

وعلى هذا الأساس وبما أن المجتمع هو الموضوع المفضل لعلم الاجتماع، فدراسته – حسب " **جافو- Javeau**" (1976)- "تقتضي إمعان نظرة تنظيمية وإشتمالية"[4] من منطلق أن كل مجتمع هو

---

[1]- Tap, P. ,"Identités collectives et changements sociaux", Toulouse, Privat, 1986,P. 84.

[2] -Ibid, P. 86.

[3]-Lévi-strauss, C.,"L'identité", Paris, Grasset, 1977, P. 166.

[4]- Javeau,C.,"Comprendre la Sociologie", Vervier, Marabout, 1977, P.210.

مجموعة اجتماعية، اقتصادية، ثقافية، دينية، سياسية، تتموقع في سياق هكذا فضاء زمكاني (زمان – مكان) وهوما يجعلنا نقول بأن " الجزائر ليست فرنسا" ولا "بريطانيا هي الكونغو" أو أيضا " الصين ليست هي البرازيل" وعلى الرغم من التجانس نوعا ما- توجد غالبا مجتمعات في مجتمع- يطبع كل مجتمع مهما كان حجمه، بتعقيده وترابطه الذي قد يأخذ أشكالا متنوعة فمستوى المجتمع يحوز على نسق تحتي بنائي- مادي وعلى نسق تحتي رمزي وهوما يتجلى في شكل علاقات اجتماعية تنسج بين مختلف الأفراد والجماعات المكونة للمجتمع[1].

يعطي نسق المعتقدات معنى للأشياء المنتجة والتي تبدو كقيمة اجتماعية، فلقد اكتشف كل من : " **إمبرتوإيكو - Umberto Eco**" (1984) و" **ليفي شتراوس- Claude Lévi-Strauss** "(1955) و"**رولان بارث - Roland Barthes**" (1972) هذه الحمولة الرمزية التي يتصف بها كل إنتاج صادر عن المجتمع، لقد بحثوا لفهم وتفسير القيمة الرمزية المرتبطة بمنتجات هكذا ثقافة إنها مسألة وضع اليد على المفاتيح التي تمكننا من الفهم.[2]

في نفس نظام الأفكار، تأتي الوظيفة المنتجة للمعنى – الخالص لكل ثقافة – لرصد " اليومي " للأفراد في علاقتهم مع الغداء، الكلمة، النظافة، الزمن، والموت.

فتمييز الملامح الثقافية يظل سهلا ما لم تختلف تلك الملامح عن الثقافة الأم للملاحظ، ذلك النسق يعطينا المفاتيح لتأويل السلوكيات التي تبدو لنا عند أول وهلة غريبة لا عقلانية وتافهة.

---

[1]- Ibid, P. 213.

[2]- Ibid, P. 214.

ولأن الثقافة والمجتمع جزء من هويتنا الشخصية فإنهما يكونان النسق الاجتماعي الذي يندمج الفرد بداخله بدرجات متفاوتة؛ يرى "**رالف لنتون - Ralph Linton** " "بأن نماذج التفاعل تحدد أنظمة كل واحد والأدوار الملائمة له".

يحدد القانون أو المعايير الاجتماعية دور كل فرد داخل الجماعة التي تشارك فيها، إنها قاعدة تعريف البناء الاجتماعي، المسؤول على تبليغ العلاقات الإنتاجية المادية والرمزية في ذات الوقت كما يشير إليه "**فالي - Vallée"** بالنسبة للدين (تبليغ نسق الاعتقادات). فالنظام هو الوضعية التي منها تتمفصل وتوضع المقاييس للعلاقات مع الأشخاص الآخرين، التفاعلات ما بين الطبقات داخل الأسرة، ما بين الأجيال، مع الأقليات والأجانب.[1]

نال كتاب " **إدوارد هال- E.T Hall** " **اللغة الصامتة** (1959) ، تداولا واسعا حيث تعرض فيه إلى وقائع معيشة، ساهمت في رواجه، فلقد أفضت نتائجه إلى أن خصائص الفضاء تؤدي إلى تنوع الاتصالات الشخصية على حسب تنوع الثقافات.

يذكر "**هال**" بأن المسافة الفاصلة بين متحدثين من أمريكا اللاتينية هي أكثر اقترابا من المسافة بين متحدثين من أمريكا الشمالية؛ فالأمريكيون الشماليون يشعرون بامتعاض وحرج عندما يبادرهم أمريكي جنوبي بالحديث وهو أكثر اقترابا منهم، إنهم يشعرون بمقدمات الاعتداء أو الاستفزاز أكثر وهوما يدفعهم إلى الانسحاب واستدارة الرأس مع إبداء أكثر برودة وأقل ود. يتكلم "**هال**" عن بعض رجال الأعمال، الذين يتخفون وراء عدد من المكاتب والكراسي وماكنات الكتابة، رجاء حفاظهم على المسافة التي تفصلهم عن

[1]- Ibid, P. 220.

محدثهم، إلا أن مسعاهم هذا سيخيب، مادام الأمريكيون الجنوبيون لا يتورعون في بعض الأحيان عن: تسلق تلك العوائق لاسترجاع المسافة المأمولة"[1].

لقد اعتبر **" هال"** موضوع الاتصال:" الوسائل التي بمقتضاها ينكشف لنا معنى ما يقوم به البشر" فهويميز مقاربته عن أعمال المختصين في الاتصالات السلكية، الذين لم يصلوا عند معالجتهم للكلمة في سياقها الثقافي، إلى فك الرمزية المنسابة عبر الإشارات الكهربائية والالكترونية، عند استعمال الهاتف والتلفاز، أو حالة الوحدات الفنوماتيكية أو المورفولوجية عند ممارسة اللغة؛ فالمسألة تتعلق بفهم المعطيات " الأكثر رمزية " فهي لا تخص في الدرجة الأولى الخبير في الاتصالات التثاقفية، إنه يهتم إمبريقيا: " بماذا يحدث عندما يتكلم الناس".

أوضح الباحث "**إدوارد ت.هال**"، الذي حدد المفاصل الكبرى لاستخدام الحيز المكاني، أن هناك تعددا في اللغات والرموز، أو" اللغات الصامتة الخاصة بكل ثقافة: اللغات الزمانية، لغات الفضاء/ المكان، لغات التملك المادي، لغات نماذج الصداقة، لغات التفاوض والاتفاق. هذه الأفكار ضمنها في كتابه الأول، الذي أشرنا إليه، حيث انتهى إلى الاستنتاجات حول العقبات التي تعترض العلاقات بين الثقافات.[2]

نستنتج من هذه النظرة، أن لكل مجتمع ثقافته التي تميزه وتطبع أفراده غالبا بطابع هذه الثقافة العامة مادية أو غير مادية. فأفراد المجتمعات الغربية يعيشون الثقافة الغربية التي تختلف عن الثقافة

[1]-Hall, E.T., " le langage silencieuse" Op.Cit,P.136.
[2]-Ibid, P.188.

العربية وغيرها من ثقافات العالم، فلكل مجتمع ثقافته والتي تظهر في أفكار ومشاعر وسلوك أفراده وجماعاته.

إن فعل " الاتصال "هو منظومة اجتماعية ثقافية معقدة، تحتوي على عناصر أخرى إلى جانب مرسل ومستقبل؛ فحدوث – ولو- تغير طفيف على مستوى منظومة الاتصال سيؤدي ذلك من البديهي إل حدوث فشله نظرا لتعقد المنظومة.

فعند قيام شخصين بعملية اتصال فإن المصفوفة لا تتوقف عند استعمالها للأصوات اللغوية للتراكيب النحوية وللمفردات كما ذهب إليه "**قوفمان**" (1964).

يسوق "**جيمبارز**- **Gumperz** "(1974) مثالا في كتابه "علم الاجتماع اللغوي الخاص بالاتصال الشخصي":« عندما يتجه سائح أوربي إلى الهند، يحدث أن يصادف مجيئه عند مضيفه الهندي، شروع هذا الأخير في تلاوة (**البوجا**-Puja)، إنها ممارسة روحية تغرق صاحبها في صمت رهيب وتشل حركته، في هذا الموقف، تصوروا حال الغربي- خاصة إذا كان يجهل وضعية الهندي- سيكون على شفى حفرة من صدمة، أما إن كان يدرك كنه تلك الممارسة التي تزامنت مع قدومه، فما سيفعله في تصورنا هو المغادرة ليعود بعد حين أو الجلوس بهدوء بالقرب من مضيفه الهندي...».[1]

[1]- Gumperz,J.J., " language and social identity", Cambridge, Cambridge University Press, 982,P.189

جامعة وهران
Université d'Oran